**المحاضرة رقم ) 6 )**

**نظرة القدامى إلى اللهجات العربية**

لقد عاش العرب في قبائل مختلفة، لكل قبيلة كيانها الخاص وجغرافيتها المحددة، وكل كيان مستقل سياسيا عن غيره، وإن كان أصلهم واحدا، وبما أن اللغة تنمو وتتطور بصفة مستمرة، فقد أدى ذلك الانعزال إلى نمو اللغة وتطورها في مناطق متعددة، مما ينجرّ عنه خلافات في مستويات اللغة المختلفة.

أولا اهتمام اللغويين والنحاة القدامى باللغة الأدبية: -

بعد فترة من مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم انطلقت الدراسات اللغوية بعد أن نشأ الاختلاط بين العرب والعجم إثر الفتوحات الإسلامية وشيوع اللحن على ألسنة الناس، فخاف العلماء على الإسلام وكتابه من أثر ذلك.وقد برزت نتيجة لذلك فروع الدراسات اللغوية، كصناعة المعاجم عن طريق جمع اللغة من الأعراب الفصحاء وتدوينها، وظهور علم النحو والصرف ووضع قواعدهما بسبب الغيرة على القرآن الكريم وصونه من التحريف، ورواية أبي الأسود الدؤلي مع القارئ الذي قرأ الآية الكريمة: "أَنَّ اللهَ بَرِيْءٌ من الْمُشْرِكِيْنَ ورَسُوْلُه" بكسر اللام دليل على ذلك، ونشأت علوم البلاغة كذلك من بيان ومعان وبديع من أجل توضيح الأساليب القرآنية.

وهكذا فإن المنهج الذي سلكه علماء العربية لم يكن يستوعب كل اللغة بمختلف لهجاتها، ولو فعل ذلك، لكانت اللغة أوسع بكثير، كما قال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافرا، لجاءكم عِلْم وشعر كثير .

ويوضّح الرافعي ذلك فيقول: "الرواة والعلماء لم يدونوا اللهجات على مناطق العرب، ولكنهم تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الإسلام، وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحّ ت روايته قبيل ذلك؛ أما سواد ما كتبوه فقد شافهوا به العرب في بواديها وسمعوه منهم، وهو بلا ريب من بقايا اللهجات الأولى التي كانت لعهد الجاهلية. على أنهم لم يد وّنوا من كل ذلك إلا كفاية الحاجة القليلة في تصاريف الكلام أو ما تنهض

به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين كالبصريين والكوفيين؛ أما تدوين اللهجات على أنها أصل من أصول الدلالة التاريخية في اللغة، فهذا لم يتنبه إليه أحد فيما نعلم؛ لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع إلى علوم القرآن والحديث ".

ثانيا خدمة القرآن الكريم هي سبب البحث في اللغة: -

إن الغاية من نشوء النحو هي خدمة القرآن الكريم، والقرآن نزل بلغة أدبية رفيعة المستوى، فلا يمكن فهمه والتعامل مع ألفاظه وأساليبه إلا في ضوء الأساليب الأدبية الرفيعة عند العرب؛ يقول الدكتور تمام حسان معبرا عن ذلك: "فماذا عسى أن يكون موقفنا من النحاة في ضوء هذه الملابسات؟ أنلومهم لأنهم خالفوا مقاييسَ وطرقا منهجية لم يكن لها وجود في زمانهم، أم نرى ما رأوا من ضرورة الأخذ بهذه اللغة الأدبية؟ إن النحاة العرب لم يتصدَّ وا لهذه المهمّة الجليلة )مهمة إنشاء النحو( إلا لخدمة القرآن، فلولا عنايتُهم بالمحافظة على النص القرآني من أنْ تتسرّب إليه ظاهرة اللحن، ما فكّروا في ذلك الزمان بعينه، والمكان بعينه في إنشاء النحو والقرآن نص أُنزل باللغة الأدبية، وليس بلغة التخاطب العادية، فكان على من

يودّ المحافظة على القرآن أن يدْرس اللغة التي أُنزل بها ".

ثالثا عدم اهتمام اللغويين القدامى باللهجات: -

إن جامعي اللغة الأوائل ركزوا في جمعهم اللغة على اللغة الأدبية أكثر من لغة التخاطب المختلفة في القبائل، فالعرب كان لهم نهجان في التعبير؛ ففي المجال الأدبي كالخطابة والشعر مثلا، كانوا يستعملون اللغة الأدبية التي يغلب عليها التأنيّ في النطق وتحقيق الهمز، وتمتاز بالبعد عن كثرة الإدغام والقلب، وأما في حياتهم العادية فيستعملون لغة التخاطب، فهي لغة يغلب عليها التخفيف والسرعة في النطق، لأنها غير مقيّدة بكتابة؛ فلغة التخاطب إدراج، أي: تسلسل عفوي يسوده التخفيف لعفويته، وليس ذلك لحنًا، فالتخفيف سمُع من أفواه جميع العرب الفصحاء؛ فقد استمع العلماء إلى العرب وهم يتخاطبون في حاجاتهم اليومية، فلاحظوا الكثير من التخفيف، بل قد يكون ذلك غالبا عليهم " .

وهكذا فإنه يمكننا القول إن اللغة العربية أوسع مما جمعه الرواة في عصر التدوين، فما لم

يدوّن من اللغة وأساليبها أكثر بكثير مما دُوّن، وهي أوسع من قواعد النحاة، فقواعد النحو

أضيق من كلام العرب " .

إن جامعي العربية لم يهتموا كثيرا بنقل لهجات القبائل العربية المختلفة بشكل واضح، ولم يضعوا نحو اً لهذه اللهجات كما وضع النحاة نحو اً للغة العربية، فاللهجات هي لغة التخاطب، ولم يكن من الممكن أن ينشأ لها نحو واحد، كما نشأ للّغة الأدبية نحو واحد.

ولو نظرنا إلى كتاب سيبويه مثلا لوجدناه في كثير من الأحيان لا يذكر اسم القبيلة التي نقل عنها، ومما تردد في كتابه قوله: وسمعناه ممن ترضى عربيته . . . وأهل الجَفاَء من العرب يقولون... أن قوم اً من العرب يقولون... وزعم لي بعض العرب... وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه... فهذا سمعناه من العرب... ولغة لبعض العرب... قال بعض العرب ...ولو أن القدامى كسيبويه وغيره تنبهوا إلى نسبة المنقول إلى قائله، فعزوا اللهجة إلى قبيلتها لقدّموا للعربية خدمة كبيرة.

والملاحظ أن القدماء في نقلهم عن القبائل أخذوا يفرقون بين قبيلة وأخرى، فينسبون الفصاحة إلى هذه وينكرونها على تلك، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فميّزوا بين القبائل الفصيحة في درجات الفصاحة، ورفضوا النقل عن القبائل المتطرفة التي كانت مساكنها قرب حدود الجزيرة العربية لمجاورتها للأعاجم، وقد عبر أبو نصر الفارابي عن هذا المنهج بقوله: كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس. والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم

الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم" .

وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف

بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم .ويظهر مما سبق أن العلماء قد قرّروا فصاحة القبيلة استنادا على أمرين:

الأول: قرب مساكنها من مكة وما حولها، ومن قبائل نجد ووسط الجزيرة، وبعدها عن

أطراف الجزيرة العربية ومخالطة الأمم الأخرى.

والثاني: البداوة، فكلما كانت القبائل موغلة في البداوة، كانت أحظى بالأخذ عنها.

وقد أدى هذا المنهج إلى تقسيم القبائل العربية إلى فصيحة وأخرى غير فصيحة أو أقل فصاحة. ففي كتب اللغة والنحو جملة من الأوصاف للهجات العربية كقولهم: لغة جيدة 1 ، ولغة قليلة 2 ، ولغة رديئة 3 ، ولغة قبيحة 4 ، ولغة فصيحة 5 ... إلى غير ذلك من الأوصاف. ومعيارهم في وصف لغة ما بالفصاحة أو القلة أو الرداءة أو غيرها من الأوصاف هو مدى قربها من القرآن الكريم ولغة قريش، وقد عبر المبرد عن هذا المعنى بقوله: "وكل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه، وإنما يقال: بنو فلان أفصح من بنى فلان، أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش، على أن القرآن نزل بكل لغات العرب" 6 .

نعم لقد تمكّن بعض علماء اللغة من توسيع دائرة النقل في القرن الرابع الهجري، بحيث لم يعد هناك تفريق بين قبيلة وأخرى في جواز الأخذ عنها والاحتجاج بأقوالها، ويأتي في مقدمة هؤلاء ابن جني الذي عقد في كتابه الخصائص بابا سماه: )اختلاف اللغات وكلها حجة(،

وقد تحدث فيه عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وغيرها، ثم قال: "إلا أن

إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئًا لأجود اللغتين" 7 .

وقد انتقد بعض علماء اللغة المحدثون هذا المنهج الذي على أساسه تم جمع اللغة وتقعيد قواعدها على اعتبار أن الفترة الزمنية التي اعتمد عليها القدماء في جمع النصوص طويلة، فقد شملت عصر الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي وجزء من العصر العباسي، ولا شك أن اللغة لم تكن ثابتة في هذه العصور المختلفة، وإنما كان يعتريها التغير والتطور صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا، وكان من الأحسن الاكتفاء بعصر واحد.

فهذا الدكتور تمام حسان الذي عاب على القدماء اضطراب منهجهم من ناحيتين:

الأولى: شمول دراستهم لمراحل متعاقبة من تاريخ اللغة العربية، تبدأ من حوالي مائة

وخمسين عاما قبل الإسلام، وتنتهي بانتهاء ما يسمونه عصر الاحتجاج، وفي هذه الحقبة لا

تظل اللغة ثابتة على حالها بل تتطور من نواح مختلفة.

الثانية: خلطهم بين لهجات مختلفة، ومحاولة إيجاد نحو عام لها جميعا 1 .

ونتيجة لهذا المنهج في النقل عن القبائل المختلفة، فإنه قد تم بعمد أو بغير عمد تهميش لهجات القبائل، فلم توضع لها قواعد لغوية كما وضع النحاة نحو اً للغة العربية التي صارت هي اللغة الرسمية التي بدأت تؤلَّف بها العلوم والفنون، والتي كان ينْظِم بها الشعراء أشعارهم، ويخْطُب بها الخطباء على منابرهم، فلم تعد هناك حاجة إلى خدمة هذه اللهجات. وكما لم تنشأ قواعد لغوية خاصة باللهجات العربية التي هي لغة التخاطب، فإن اللغويين والمعجميّين لم يعتنوا بنقل لهجات القبائل كلّ على حدة، فلم يضعوا معاجم خاصة باللهجات تعزو كلّ كلمة إلى لهجتها، وإنما كانت ألفاظها ترِد مفرقة في المصادر هنا

وهناك في إشارات سريعة، وفي أحيان كثيرة لا يسمّي اللغويون القبيلة التي تنتمي إليها

الكلمة، ويكتفون بالقول: "وهي لغة" 2 . والشيء المؤسف حقا أن جامعي اللغة لم يجمعوا منها إلا القليل؛ أما الكثير فقد ضاع ولم يصل إلينا، وأنا أعتقد أن الكثير منها مازالت تحتفظ به اللهجات العربية إلى اليوم.

وقد ظلت كل قبيلة من القبائل العربية بعد ظهور قواعد النحو والصرف، وبعد استقرار اللغة الرسمية تحتفظ بلهجتها الخاصة، فهي اللغة التي تستعملها في حياتها اليومية، وتتواصل بها فيما بينها، ولكنها في الشعر والخطابة والكتابة تستعمل اللغة العربية المشتركة.\_\_